

العمل والرؤية

"الفقراء أم يسوع"؟

"أما كان يمكن أن يباع هذا الطيب بكثير ويُعطى للمساكين!"

بينما كان يسوع في بيت عنيا في بيت سمعان الفريسيّ الأبرص، دخلت فجأة امرأة زانية وأفاضت طيباً جزيل الثمن على قدميه ومسحتهما بشعر رأسها... فتضجّر الجميع لأنه كان يمكن أن يباع هذا بكثير ويُعطى للفقراء.

التساؤل أو الاعتراض حقّ، وهذا طبيعي. وغالباً ما يأخذ هذا الموقف الذين يدعون أنهم من جماعة الخدمة، والإحسان، ومحبة الفقير، والتزام شؤون الإنسان إلخ...

نعم غالباً ما يسود التعليم التالي، أن هناك حياة تأمل أو صلاة، وهناك حياة عمل أو خدمة. الأسلوب الأوّل يهتمّ بالصلاة، والوحدة، والأصوام، والدراسات إلخ... أمّا الثاني، فينطلق إلى الاخوة، والخدمات، والمؤسسات، وديناميكية الحياة، والحاجات، ومساعدة المرضى والمحتاجين، إلخ... حتّى أنّ الرهبنة (عند بعض الطوائف) انقسمت قسمين: تأملية وخادمة. مرّات عديدة يقف الواحد منّا مع ذاته، ويحاول أن يختار أو يفكر، بين أن يحيا للخدمة أو أن ينصرف للتأمل.

في كنيستنا الأرثوذكسيّة، حيث لا يوجد رهبنة خادمة ورهبنة تأملية، نقع في الخدعة ذاتها، ذلك حين نفرز الرهبنة إلى عالم التأمل، وحياة الكهنوت أو العلمنة إلى دنيا الخدمة. ويتمادى الموضوع إلى حدّ قبول الأولى، حياة التأمل، على أنّها للدرجات الروحية العليا، وأنّ الثانية يمكن قبولها حكماً بدرجات روحية أدنى من حيث الواقع. إذا كان هذا التقسيم صحيحاً، فلا يمكننا بالمقابل أن ننكر أنّ

المسيح فَضَّلَ ما نظَّه أَنَّهُ ينتمي إلى النوع الأول، أي التأمل. فكيف يمكن إذن بعد هذا أن نسمح لأنفسنا باختيار الأدني؟

الواقع، إنَّ النظرة الأرثوذكسيَّة للحياة المسيحيَّة لا تعترف بتمييز كهذا، بين الرهينات التأملية وبين الرهينة الخادمة والكهنوت، أو العلمنة العاملة. إنَّ ما يسمَّى بالرؤيا أو التأمل، من جهة، والعمل أو الخدمة، من جهة ثانية، لا علاقة له بالتصنيف السابق. فإذا كان التأمل هو الانصراف لخدمة المسيح، والعمل هو خدمة القريب، فإنَّ المسيح وَحَدَّ ذاته مع الفقراء، والمساجين، والمرضى... "ما فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الصغار فبي فعلتموه". أي إذا أردنا أن ندهن قدمي يسوع بالطيب تأملاً، فعلياً أن نَصَّبَهُ على أقدام الفقراء خدمةً.

ما هو العمل إذن وما هي الرؤيا (أو التأمل)؟

الرؤيا هي عصارة العمل، أو ثمرة العمل، لا بل إنَّها، بكلمة أخرى، غايته. التأمل هو المنشود من الخدمة. الخدمة التي لا تقود إلى التأمل ولا تلتحف بجوِّه هي عاقر.

الخدمة والعمل هما المرحلة الأولى للحياة الروحيَّة. والرؤيا، أو التأمل، أو معاينة الله، هي المرحلة الثانية. المرحلة الأولى هي، بمعنى آخر، حفظ الوصايا. ومن ضمن هذه الوصايا أحبُّ الربِّ إلهك من كلِّ قلبك وأحبُّ أيضاً قريبك كنفسك. في مرحلة العمل تدرج الصلاة، والأصوام، والأسهار، والرهبنة، والبرية، والمؤسسات، والخدمة، والمطالعة، والدراسات، وكلِّ أعمال وأتعاب الفضيلة.

أمَّا المرحلة الثانية فهي معاينة الله (الرؤيا - التأمل) من خلال تقدمة كلِّ أنواع الأتعاب السابقة. نحن نعمل لنعائين الله. لنا الحقُّ، لا بل هو واجب علينا، أن نختار أسلوب العمل؛ ولكن ليس لنا الحقُّ بالأمر بالتأمل. بكلامٍ أوضح، إنَّ طرقَ الخدمة، والصلاة، والعمل، ما هي إلاَّ اجتهادات وجهادات لتطهير النظر ولتوهُّلنا لرؤية الله والتأمل به.

الفقير هو أيقونة للمسيح، أنظرُ إليه فأرى المسيح الفقير، وأشتهي له الكساء والغذاء. المؤسسات أيقونات أخرى أرى المسيح فيها ومنها. كلُّ أداة وكلِّ خليقة هي أيقونة للربِّ. من العلم يجب أن أرى يسوع، يسوع غاية كلِّ بحث أو دراسة. الأولاد أيقونة للرب، أولسنا نرى في أولاد فلان أيقونته؟ كذلك نرى في أولادنا أخوة المسيح وأولاده. أتعبُ على تربيتهم ليلبغوا إلى ملء قامته. اللاهوت؛ إنَّه

أيقونة كلامية وخبرات داخلية تكشف لنا وجه المسيح. المؤسسات هي أدواته التي تفوح منها رائحة أتعبه وأعراقه.

نحن جماعة نخرج من العمى إلى الرؤية، نلتمس طريقنا إلى وجه يسوع: أهدنا في رهينة، وآخر في مؤسسة، والطرق عديدة. وكلما ازددنا تعباً وإخلاصاً كلما انبلج لنا نورٌ جديد لتصير أيقونة المسيح أوضح.

الرؤيا؛ أي التأمل يبدأ مع العمل والخدمة، ويزداد حتى يصير العالم كله صورة واضحة نتأمل فيها وجه يسوع. نعمل إذن حتى يصير يسوع هو الكلُّ في الكلِّ، أو حتى نصير رجال رؤيا ثابتة وواضحة، كبولس الخادم الذي قال: "لستُ أنا أحيا بعد بل المسيح يحيا فيّ". صرخة المسيحي الدائمة هي: "أرني وجهك" فيلذُّ لك تأملي وأنا أفرح بالربِّ.

آمين